الوالد

للقصصي الفرنسي موباسان

بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

كان موظفاً في وزارة المعارف يذهب إليها كل صباح في عربة (الأومنيبوس) من داره في (الباتينيول) إلى مكتبه في قلب باريز، وكانت عاملة في مخزن تذهب إليه في تلك الساعة نفسها؛ وكانت سمراء حلوة السمرة، شابة غضة الشباب، ذات عينين سوداوين ساحرتين، وكانت تُرى كل صباح في زاوية من الشارع لا تحيد عنها، واقفة تنتظر العربة، فإذا رأتها عدت إليها بخفة ورشاقة، فأدركتها وقفزت إليها قبل أن يقف السائق خيولها البطيئة. ثم دخلت فأجالت عينيها فيما حولها، وجلست في مكانها الذي لا تغيّره قبالة صاحبنا (فرانسوا تاسّه) الذي أحس منذ المرة الأولى التي رآها فيها بإعجاب بها لا حدّ له؛ وود كما يود المرء أحياناً لو يطوقها بذراعيه، ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة، بل لقد شعر أنها فتاة أحلامه التي أعدّ لها في قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التي هام بها خياله الشاب، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه، فإذا تضايقت من نظراته واحمرّت خجلا، حاول أن يصرف بصره عنها، ولكنه لا يستطيع فيظل محدقاً فيها؛ ولم يكلمها قط، ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما، فالتقتا وتفارقتا منذ التقت نظراتهما

وازدحمت العربة يوماً بالركاب ولم تجد الفتاة مكاناً خالياً، فنزل لها عن مكانه وظل واقفاً، فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأ وميضها نفسه نورا، ولم يعد يظهر عليها الضيق من تأمله فيها، وإن كانت لا تزال تغض بصرها حياء، وانتهى الأمر بهما إلى الحديث، وكان حديثاً لذّاً كأنه قطع الروض يستمر نصف ساعة كل يوم، كانت أشهى إليه من أيام العمر كلها وما فيها من لذائذ ومتع. وكان يفكر فيها أبداً وهو جالس إلى مكتبه في ساعات العمل الطويلة المملّة، ويستعيد ذكراها في نفسه، ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه في وحدته

لقد كانت سعادته وأمله ومثله الأعلى الذي يسمو عن حقائق الحياة وعن ترّهاتها!

* * *

وتأكدت بينهما المعرفة فأصبحا يجتمعان ويفترقان على مصافحة باليد لا يفتأ يحسّ إلى المساء بأثرها في يده، كأنما لمستها الكهرباء لولا أن أصابعها الغضة اللينة تحمل إلى جسده هزة أقوى من هزة الكهرباء، يميد لها جسمه كله، ويشعر أنها تركت على كفه أثراً يتحسسه النهار كله، وينتظر بصبر فارغ صبيحة الغد ليلقاها في العربة (السعيدة) ويرى أيام الآحاد — على رغم أنها أيام راحة ودعة — مضجرة محزنة لأنه لا يبصرها فيها

ولقد كانت تحبه هي، ولم يعد يشك في ذلك بعد أن قبلت دعوته إياها للغداء في (لافيت) يوم أحد جميل من أيام الربيع

وكان ذلك الأحد، وجاء إلى محطة (الأومنيبوس)

بكرة اينتظرها فإذا هى فيها تنتظره ... فدهش من بكورها ، وهم بالتحدث إليها ، ولكنها قالت له :

— قبل أن نخطو خطوة واحدة ... أريد أن أقول لك شيئاً ، فهل تسمعه ؟

واهتز جسمها وهى مستندة إلى ذراعه وشحب وجهها فأطرقت بنظرها إلى الأرض وقالت :

— لا أريد أن أخدعك عن نفسى ـ إنى فتاة شريفة ـ ولن أصحبك حتى تقسم لى أنك لن ... أنك لا تفعل ... إلا ماهو .. أعنى ما ليس ... لائقاً

وأكملت كلماتها بجهد ظاهر . وعاد وجهها كالوردة الحمراء ... وسكتت ولم يدر هو بماذا يجيب، وشعر بالخيبة والسرور يلتقيان فى نفسه ، وتراءت له أحلامه في الليلة المنصرمة — احلامه التى ألهبت النار فى عروقه وملأت رأسه بالخواطر الجنسية التى تفيض بها رؤوس الرجال ... فلم يقل شيئاً

فعادت تقول بصوت مضطرب وفى عينيها دمعة تترقرق !

— إذا كنت لاتعدنى باحترام ... عفافى ، فانى عائدة إلى البيت لا محالة !

فطوقها بذراعه فى رفق وحنان ، وقال لها :

— أعدك ألاّ أفعل إلا ما تريدين

فأشرق وجهها سروراً وقالت :

— أحق ما تقول ؟

— نعم . وإنى أقسم عليه

— إذن فلنركب !

ولم يتكلما فى الطريق أبداً . لأن العربة كانت مزدحمة . فلما بلغا (لافيت) توجها نحو (السين) وكان النسيم يهب عليلا يبعث الارتخاء فى الجسم وفى الروح ، وكانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى النهر الفياض والخمائل الفاتنة ، فتغمر النفس نشوة وسكراً فشعرا كأن نفسيهما قد سبحتا فى بحر السعادة الذى يزخر فى سماء الأحلام بعيداً عن الدنيا وشرورها كما تسبح أسراب السمك التى وقفا ينظران إليها حالمين مأخوذين

وانتبهت أخيراً ، وانتبه على صوتها وهى تقول له :

— لقد كنت حمقاء !

— ولم بالله ؟

— لأنى صحبتك .. أما تراها حماقة أن تصحب فتاة رجلا لا تعرفه فى نزهة خلوية

— أبداً بالعكس . هذا أمر عادى [1]

— كلا كلا . ليس هذا بالعادى ، بالنسبة لى أنا على الأقل ، أنا التى لا تريد أن تزل بها القدم ، بمثل هذا تزل الأقدام ، ويسقط الناس فى هوة الرذيلة ... ولكنها حياة جافة تلك التى أحياها حياة متشابهة لا أثر فيها للجدة . تمر الأيام ، وتمضى الشهور وهى هى : غدوّ إلى العمل ورواح منه. وليس لدىّ إلا أمى الكئيبة الحزينة التى أعمل لأدخل على قلبها المظلم خيطاً من ضوء السرور ، ولكن على كل حال ... لقد أخطأت بالمجىء معك

وكان جوابه على كلامها أن عانقها بشوق فأفلتت منه كالظبى النافر ، وصاحت به مغيظة :

— أوه مسيو فرانسوا . ابعد ما أقسمت لى ؟

وقفلت راجعة نحو (لافيت)

وتغديا هناك فى مطعم جميل متربع فى حضن النهر وقد جعلهما الهواء الطلق والدفء والخمر التى تعاطياها فتوردت منها وجنتاها ، جعلهما صامتين فياضة صدورهما بشتى العواطف المحبوسة ... التى

(١) أمر عادى !

انفجرت بعد تناول القهوة فاستحالت قوة وفرحاً واندفاعاً هائماً يجتازان (السين) ويسيران بازاء الشاطئ إلى قرية (لا فريت)

وسألها فجأة :

— ما اسمك ؟

فأجابت :

— لوزيتا

فردد اسمها بصوت خافت ولم يقل شيئاً

كان ذلك الصف الطويل من الدور البيض القائمة على الشاطئ يبدو كأنه غارق فى النهر . عاليه سافله ، وكان على الشاطئ كثير من زهر الأقاحى فراحت تقطفه وتصنع منه باقة ، أما هو فراح يغني بملء صوته نشوان من الطرب كظمآن وقع على الماء العذب ، وظهر إلى يسارها كرم جميل على أكمة صغيرة تنحدر إلى الشاطئ ، فتأملته مشدوهة وصاح بها :

— انظرى

ثم بدت لهما أرض واسعة تحف بالنهر من جانبيه مكسوة بزهر (الليلك) الجميل كأنما هى طنفسة ثمينة صنعتها يد الله تمتد إلى حدود القرية الجاثمة هناك على ميلين منهما أو ثلاثة — فلبثت شاخصة ذاهلة وهمست :

— ياله من منظر فاتن !

وسعيا إلى هذه الأرض التى تفيض على باريز من هذه الأزهار الجميلة فيتسابق الناس إلى اقتنائها ، ويسرع البائعون من أصحاب العربات إلى عرضها ، واجتازا محجة ضيقة إلى بقعة صغيرة خالية فجلسا فيها ، وكانت قبائل من الفراش والذباب تطن فوقهما طنيناً مستحباً ، والشمس مشرقة تملأ المكان بأشعتها الناعشة كما تملؤه الأزاهير بأريجها المعطر

ورن من بعيد ناقوس كنيسة

فأصابهما ذهول فاتن وتعانقا وطوقها بذراعه بقوة وارتميا على الأرض غارقين فى قبلة طويلة على غير شعور منهما — وكانت عيناها منمضتين وذراعاها ملفوفتين حوله ، وقد تخدر جسمها كله وارتخى ، وعيل صبرها فأسلمته نفسها ... وهى لا تدري ماذا تصنع !

أفاقت الفتاة أخيراً ، فهالها ما صنعت ، فغطت وجهها بكفيها وشرعت تبكى وتئن أنيناً مؤلماً ، فحاول أن يغريها ويهون الأمر عليها فلم تستمع إليه ونهضت ولسانها يدور فى فمها لا يهدأ ، تهمس همساً متواصلا :

— يا إلهى ! يا إلهى !

فعاد يقول لها :

— لوزا ، تريثي قليلا ، أرجوك يا لوزا

ولكنها أبت عليه ، وانصرفت عنه دون أن تلقى عليه تحية الوداع — وكانت عيناها شاخصتين ووجنتاها حمراوين كالجمرة المتوقدة

* * *

ولقيها فى العربة غداة الغد ، وكانت شاحبة اللون ، غائرة العينين ، فهمست فى أذنه :

— انزل ، إن لدى ما أقوله لك

فنزل وسارا على رصيف الشارع حتى إذا انفردا بنفسيهما قالت له فجأة :

— اسمع ! يجب أن نفترق ، لم أعد أريد أن أراك

فسألها بصوت خافت :

— ولكن ... لماذا ؟

— لأنى لا أريد ... لا أقدر ... لقد كنت مجرمة

فآله جوابها ، وتنبهت فى نفسه خواطر الأثرة

الجنسية فتصور هذه الفتاة الجميلة بين يديه يستمتع بها فى ليالى الحب الوادعة الهنيئة ، وأحس بالرغبة الملحة فى الاستحواذ عليها ، فأتبعته هذه الأفكار وكاد رأسه ينفجر من ضغطها — وعلم أنه لا يستطيع البقاء خلواً من (لويزا) فعمد إلى استعطافها والتضرع إليها :

— ... ... أرجوك يا لويزا

— كلا . لا أقدر ، دعني

— إننا سنتزوج ، هل تقبلين بى زوجاً

— كلا

وذهبت مسرعة

* * *

ومرت ثمانية أيام لم يرها فيها ، ولم يكن يعرف لها مستقراً ، فحسب أن لا مطمع له فى رؤيتها مرة ثانية ، وتناساها ... فلما كان اليوم التاسع سمع قرعاً على بابه فذهب ينظر ، فاذا هى ترتمي بين ذراعيه وتبيحه نفسها وتصبح خليلته !

واستمر ذلك ثلاثة أشهر ، ثم أحس بالجنين الذى تحمله فى أحشائها فتبرم بها واجتواها ، وحاول أن يجد إلى الخلاص منها وسيلة — ولكن الوسائل أعجزته ، فاختفى

وكانت الضربة على الفتاة قاسية فلم تفتش عن هذا الذى أغواها ثم تخلى عنها ، بل عادت إلى أمها فوقعت على قدميها ، تشرح لها حالها ، وتسألها رحمتها وحنانها

وبعد شهور أخرى ... وضعت غلاماً

* * *

كرت الأعوام وحياة (فرانسوا تاسه) تكر معها على نمط واحد ، ليس فيها لذة الأمل ، ولا روعة الانتظار . حياة موظف يفيق كل صباح فى الساعة التى اعتاد أن يفيق فيها ؛ ويسلك كل يوم الطرق التى سلكها بالأمس ويسلكها فى الغد ويدخل المكتب ذاته ، ويعمل الأعمال نفسها ... حياة حالكة جافة ، وعزلة كاملة . يكون فى مكتبه بين أقرانه نهاراً ولكنه منفرد بنفسه عنهم ويأوى فى الليل إلى داره وليس له فيها قرين ... وقد أعانته عزلته على توفير المال فكان يدخر من كل مرتب مائة فرنك لهرمه

وكانت مسلاته الوحيدة أن يخرج فى الآحاد فيجول فى (الشانزليزيه) يشاهد مباهج الدنيا ، ويرى الفتيات الجميلات وهن يجزن به أسرابا ، ويعود فى الغد إلى عمله فلا يذكر من أمسه شيئاً أو يذكره بكلمة يهمسها فى أذن جاره :

— لقد كانت أمسيتنا أمس بهية

وكان مرة يجول على عادته فى صباح أحد صائف فقادته رجلاه إلى حديقة (مونسو) حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن أولادهن يسرحون ويمرحون على الخمائل ، ولكنه لم يكد يخطو إلا خطوات حتى اعترته رعدة . لقد لمح امرأة تجر بيد صبياً فى العاشرة من سنيه وباليد الأخرى بنتاً فى الرابعة

وكانت هى بعينها

وازداد اضطرابه فارتمى على كرسى قريب منه وانتبهت فى نفسه — فجأة — ذكرياته الماضية وهاجت فى صدره عواطفه الحبيسة فجعل يرقب هذه المرأة وهى جالسة وإلى جانبها الصبي هادئاً ساكناً فى حين أن البنت لا تفتأ تلعب وتلهو

ورفع الصبى رأسه فخفق قلب (ماسه) خفقاناً

شديداً ، وأيقن أنه ابنه ، ولكن ماذا يصنع ؟ هل يتعرف إليها ويذكرها بنفسه ، إنها ستعرفه لأنه لم يتغير إلا قليلا عما كان عليه منذ عشر سنوات . غير أنه لبث جاثماً فى مكانه وراء الشجرة ينتظرها حتى تذهب ، ليتبعها

***

مرت على (فرانسوا) ليلة لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التفكير فى هذا الغلام الجميل ... كان يعلم أنه ولده ويود أن يصل إليه ولكنه لا يدرى من أين السبيل ، وإن كان قد عرف دارها وعرف أنها اقترنت برجل مستقيم شريف ، رثى لحالها وغفر لها زلتها بعد أن اعترفت له بكل شىء

ولبث يتردد على حديقة (مونسو) فى كل أحد ، وكلما رأى ولده تثور فى نفسه رغبة جامحة فى أن يأخذه بين ذراعيه ، ويقطع خديه لثما وتقبيلا ، ثم يحمله ويفرّ به ، ولكنه لا يفعل شيئاً ، ويبقى واقفاً ينظر إليه حتى يذهب ، فيعود إلى عزلته محطماً حزيناً ، تحز فى نفسه الآلام وتحرقها شتى العواطف

***

وعزم أخيراً على اقتحام المصاعب التى تعترضه وعلى أن يصل إليها مهما كلف الأمر ، فاقترب منها يوماً فى الحديقة ، وقال لها وشفتاه ترتجفان :

— ألم تعرفينى بعد ؟

فرفعت إليه عينيها ، فلما تثبتته ندّت عنها صرخة رعب وفزع ، وأخذت بيدى ولديها وولت مسرعة تجرهما وراءها جراً

أما هو فقد رجع إلى منزله يبكى ، وافتقدها منذ ذلك اليوم فلم يعد يراها لا فى الحديقة ولا فى غيرها ، ولكنه لم ينسها أبداً ، ولبث يفكر فيها دائماً ويكتب إليها حتى بلغ ما بعث به إليها عشرين رسالة ولم تجب ، فعزم على أن يخطو الخطوة الأخيرة ، فأخذ ورقة وكتب إلى زوجها :

سيدى

قد يكون اسمى مبعث إزعاج لكم ، ولكنى بائس حطمته الآلام ، وليس لى فى غيركم مأمل . فأرجو أن تسمحوا لى بمقابلتكم عشر دقائق وتفضلوا بقبول . . .

فجاءه الرد صبيحة الغد :

سيدى :

أنتظرك يوم الثلاثاء الساعة الخامسة

***

وكان ذلك اليوم فارتقى الدرج إلى منزلها وقلبه يخفق فى صدره خفقاناً شديداً ، وقد ضاقت أنفاسه وأحسّ من نفسه بالاعياء فأمسك بالجدار كيلا يسقط ، ومشى ببطء ومشقة حتى بلغ الطابق الثالث فخفق الباب ولبث ينظر

— هل السيد (فلامل) هنا ؟

— نعم . تفضل يا سيدى

وأدخلته الخادم إلى بهو كبير فوقف فى وسطه مأخوذاً كالذى ينتظر أن تحل به مصيبة

وفتح الباب ودخل منه رجل وقور مهيب بمعطف أسود فأشار (لتاسّه) أن يجلس وارتقب ما يأتى به

فاعتدل (فرانسوا) فى جلسته وقال بصوت مرتجف :

— سيدى . . . سيدى . . . أنا لا أدرى إذا كنتم تعرفون اسمى أو . . .

فقاطعه الرجل قائلاً :

— لا فائدة من هذا الكلام ... لقد أخبرتنى امرأتى بكل شىء

وكانت لهجته جافة استشعر منها (فرنسوا) غضبه المكتوم ، فعاد يقول :

— عفواً يا سيدى ... أكاد أموت من الألم ومن تعذيب الوجدان ومن الخجل ولا أريد إلا معانقة ابنى مرة واحدة . . . مرة واحدة فقط

فنهض الرجل واقترب من الموقد فقرع الجرس يدعو الخادم ، وأمرها أن تأتيه بلويس

وبقيا صامتين لا يجدان ما يقولانه حتى دخل الصبى يسعى إلى هـذا الذى يحسبه أباه فلما لحظ الغريب وقف ، فقبّله السيد (فلامل) فى جبينه وقال لفرنسوا :

— لك أن تعانقه إذا شئت

فنهض فرنسوا وألقى بقبعته على الأرض ، وحمل ولده الدهوش يقبله في جبينه وعينيه وفمه ، والغلام يتلوى ويدير وجهه ليدفع عنه شفتى هذا الرجـل الغريب . أما السيد (فلامل) فقد ولاهما ظهره ، ووقف ينظر من النافذة

حتى إذا ضاق الغلام بذلك ذرعا ، ألقاه (فرنسوا) على الأرض وفرّ كأنه لص وهو يصيح به :

— وداعاً ... وداعاً إلى الأبد !

على الطنطاوى

الصيف خفيف هـــــذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

الخفيفة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى أثمانها جميلة فى ألوانها

فبادروا بأخذ طلباتكم